مدينة الله المقدسة ولصوص التاريخ

محسن عوض الله
كاتب مصري

القدس.. يكفي أن تنطق اسمها، وتتأمل في جميل حروفها، لتشعر بالراحة والطمأنينة، القدس كلمة ناطقة بذاتها، حروفها مشعة بالإيمان متجذرة في التاريخ.

احساس غريب ينتابني بمجرد سماع كلمة القدس، أنها أكبر من مجرد كلمة، وحروفها الثلاث أعمق من ملايين المجلدات والصحف، تاريخ من الأديان والحضارات تحويه تلك المدينة المقدسة التي كُتب لها أن تكون أرض صراع دائم ومعارك لا تنتهي رغم أنها أرض مباركة كما وصفها الله في القران الكريم «سبحان الذي آسري بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله».

قبل ما يعرف بالربيع العربي كانت الدول العربية لا تعرف التظاهر سوى من أجل فلسطين، الشعوب العربية والمسلمة لم تكن تتحرك سوى من أجل القدس، لم يكن هتاف «على القدس رايحين شهداء بالملايين» ينطلق من القاهرة حتى تسمع صداه ببيروت وعمان وتونس والرباط والجزائر وحتى بالدول غير الناطقة بالعربية كماليزيا وكوسوفو ودول الاتحاد السوفيتي السابق.

القدس قضية عابرة للحدود، أكبر من تباين الألسنة، واختلاف الثقافات، وتباعد المسافات،

قضية جامعة لكل المسلمين بل وللمسيحيين أيضا، القضية ذات بُعد ديني وإسلامي لا يمكن اغفاله في ظل المكانة التي تتمتع بها المدينة في الموروث الثقافي الإسلامي كمسري الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وكنيسة القيامة مهد النبي عيسى.

ولا يمكن اغفال البعد الديني أيضا في الصراع القائم حول القدس والمحاولات الإسرائيلية والأمريكية لتغيير هوية القدس الإسلامية وطمس عروبتها وسرقة تاريخها وحضاراتها، وما قرار دونالد ترامب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية بالاعتراف بالقدس عاصمة لدولة إسرائيل ونقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلا جزء من ذلك الصراع الديني المغلف بقشور سياسية، خصوصاً أن كثير من المحللين يرون أن أحد الدوافع الرئيسية لاتخاذ ترامب هذا القرار تمثّل في إرضاء قاعدته الانتخابية من المسيحيين الإنجيليين أنصار ما يسمى بـ «المسيحية الصهيونية».

القدس والإسلام

للقدس قداسة ومكانة خاصة في الذهنية الإسلامية فهي مسري رسول الله وأول قبلة للمسلمين وثالث الحرمين الشريفين بعد الكعبة المشرفة ومسجد النبي في المدينة المنورة.

الاهتمام بالقدس بدأ منذ عهد رسول الله محمد -صلى الله عليه وسلم- بعد الجهر بالدعوة الإسلامية وانتشارها، حيث قام النبي بتوجيه أنظار المسلمين وقلوبهم إلى مدينة القدس، مدركا أهميتها الدينية والروحية لدى المسلمين، فبعث في جمادى الأول سنة ثمان للهجرة أول قوة إسلامية إلى بلاد الشام، وجعل على رأس هذه القوة، التي لا تزيد على ثلاثة آلاف مقاتلا، زيد بن حارثة.

زحف المسلمون إلى الشمال، حتى قابلتهم جموع الروم في مؤتة بالقرب من مدينة الكرك في الأردن، ودارت رحى المعركة غير المتكافئة، وما لبث أن انسحب جيش المسلمين لإنقاذ القوة من فناء أكيد، وكانت هذه الحادثة بمثابة الاختبار الأول للمسلمين وإرادتهم الشجاعة في تحرير بيت المقدس، واستعدادهم التام للتضحية والفداء من أجل القدس.

أمر الرسول الكريم بتجهيز جيش يقوده «أسامة بن زيد»؛ للانتقام لشهداء مؤتة، وانتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وجيش أسامة يتأهب للسير شمالاً، فأمر الخليفة أبو بكر الصديق أن يواصل جيش أسامه سيره ويحقق المهمة التي كلفه بها رسول الله، ولما اشتدّ حصار المسلمين على بيت المقدس سنة 636م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب طلب بطريرك المدينة

تسليمها للخليفة بن الخطاب وكانت العهدة العمرية التي منحت الأمان لأهل المدينة.

الحروب الصليبية

استطاع الصليبيون في نهاية القرن الحادي عشر، الاستفادة من الانقسامات التي تعرض لها العالم الإسلامي؛ نتيجة الفتنة التي دبت بين الشيعة، والسنة؛ وبين العرب، والترك في تلك الفترة، وفي ليلة 14 يوليو 1099م، استطاع الصليبيون دخول المدينة في ظروف سياسية متردية جدًّا، إذ كان هناك صراع بين الخلافة العباسية في بغداد والخلافة الفاطمية في القاهرة، والتي كانت القدس تحت نفوذها، وكانت هناك صراعات بين مختلف الأمراء في العالم الإسلامي على السلطة والنفوذ، لقد ساهمت هذه الفرقة في صفوف المسلمين إلى إضعافهم وبالتالي إلى سقوط القدس دون دفاع منظم وجدي عنها يصد غزو الفرنجة، وذلك إلى أن أعلن كل من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي الجهاد عام 1111م بضغوط شعبية ورسمية، علمًا أن المدة بين احتلال القدس وإعلان الجهاد تخللتها محاولات محدودة من الخلافة الفاطمية وبعض الأمراء المسلمين لاستعادة القدس، لكنها باءت بالفشل جميعًا. وقد أخذت ثقافة الجهاد رويدًا رويدًا تتعزز في نفوس الأمراء المسلمين في مختلف الممالك والولايات، وراحت مساعي التحرير تزيد، إلى أن تحررت القدس على يد صلاح الدين الأيوبي عام 1187م، بعد أن ورث راية الجهاد من القادة الزنكيين بحسب صاحب كتاب «القدس والإسلام: دراسة في قداستها من المنظور الإسلامي».

سياسة الاحتلال والتهويد

عقب المؤامرة البريطانية على فلسطين ووعد بلفور بتمكين اليهود من إقامة وطن قومي لهم بفلسطين، وما تبعه من ممارسات إرهابية لعصابات الهاجاناة الصهيونية ضد العرب والمسلمين بالمدينة ثم إعلان قيام دولة إسرائيل في 1948 لجأ الصهاينة إلى إجراءات لتهويد القدس وسرقة تاريخها.

بدأت أولى خطوات سرقة القدس فور انتهاء حرب عام 1948 وقبول الأطراف العربية الهدنة الثانية، فبعد الحرب كانت حوالي ثلثا القدس قد وقعت بالفعل تحت يد الإسرائيليين حيث استولوا على ٪66 من أراضيها، في حين بقى الثلث بما فيه البلدة القديمة والمنطقة المقدسة في يد العرب.

بوقوع هزيمة عام 1967، استولت اسرائيل بشكل كامل على المدينة ولم تمر سوي ساعات

حتى قام الحاخام الإسرائيلي شلومو غورين حاخام بإقامة شعائر الصلاة اليهودية على الحائط الغربى للحرم القدسى (حائط المبكى) إيذانا بسرقة هوية المدينة.

بعدها بعدة أيام عقدت الحكومة الإسرائيلية عدة اجتماعات، ثم اتخذ الكنيست قراره بعد الحرب بثلاث أسابيع وتحديدا في 27 يونيو 1967 لضم القدس إلى إسرائيل، ولأجل تنفيذ هذه الخطوة نقلت إسرائيل بعض مقراتها الحكومية إلى القدس، وهكذا كان أول قراراتها إلغاء مناهج التعليم العربية في مدينة القدس، وإطلاق الأسماء اليهودية على الشوارع والساحات، كما هدمت حى المغاربة في القدس وأجلت سكانه بأكملهم من المدينة، وكذلك أجلت اغلبية سكان حى الشرف، وفى المقابل أقامت حزام من تسعة أحياء سكنية يهودية حول المدينة، وهو الأمر الذى استهجنته اليونسكو التي طالبت اسرائيل بالتوقف عن تشويه طابع المدينة الحضارى.

وقد بدأت إسرائيل عدة إجراءات ثقافية لمحو التاريخ العربى بداخله، ومن أوله الحفريات التي أجرتها اسرائيل أسفل المسجد الأقصى للبحث عن بقايا هيكل سليمان أو معبد الملك سليمان الذى يدعى اليهود وجوده والذى دمره الرومانيين عام 70 من الميلاد، ورغم عدم اكتشافهم لأى من آثار هذا المعبد إلا أن حفرياتهم تسببت في تصدع عدد من المبانى التاريخية في محيط الحرم.

شهادات منصفة

محاولات إسرائيل المستميتة لإيجاد موطء قدم لها في تاريخ القدس كذبتها وفضحها المفكرون الغربيون قبل العرب، ففي كتابه «التاريخ المبكر لشعب إسرائيل من المصادر الآركيولوجية المدونة» الصادر عام 1992 أكد البروفيسور الفرنسي توماس تومسون إن مجموع التاريخ الغربي لإسرائيل والإسرائيليين يستند إلى قصص من العهد القديم تقوم على الخيال».

وفى عام 1996 أصدر البروفيسور كيث وإيتلام؛ أستاذ الدراسات الدينية في جامعة «ستيرلينغ» باسكتلندا، كتابه «اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني» وفيه دعا إلى الاهتمام بالتاريخ الفلسطيني القديم، الذي طمس في معرض تلفيق تاريخ قديم مزعوم لإسرائيل؛ معتبراً أن الزعم بأن لإسرائيل حقاً لا ينكر في القدس، كعاصمة لدولة إسرائيل، تعود جذوره إلى تلك الفترة المتخيلة من عصر «مملكة داود».

عربيا.. جاء كتاب «القدس والإسلام: دراسة في قداستها من المنظور الإسلامي»،

للبروفسور خليل عثامنة، أستاذ التاريخ والدراسات الإسلامية، اذ يرفع الحرج عن المكتبة العربية التي تفتقر لدراسات منهجية وأصيلة حول مدينة القدس مقارنة بما هو متوفر في المكتبة العالمية.

ويؤكد البروفسور عثامنة في كتابه أن اليهود لا علاقة لهم بالقدس، لم يقيموا فيها أي مملكة أو حضارة ولم يرد في القرآن الكريم ذكر بني إسرائيل مقرونًا بفلسطين أو بمدينة القدس ولا حتى في موضعٍ واحد، مشددا على أن وجود اليهود في القدس تحديدًا وفي فلسطين عمومًا وجود عابر غير أصيل، هم مروا منها وهاجروا إليها وسكن بعضهم فيها مثل شعوب ومعتقدات كثيرة، ولم تنشأ في القدس أي حضارة أو ممالك يهودية. البحوث الحديثة لم تثبت أيا من هذا، بل وتنفيه، حتى المؤرخون الإسرائيليون الجدد يفندون الادعاءات الصهيونية حول هذه المسألة...

القدس بين الأزهر وترامب

لم يغب البعد الديني عن الصراع بالقدس، وسعت إسرائيل للسيطرة الدينية على المدينة عبر اجراءات عنصرية تعسفية ضد الإسلام والمسيحية تمثلت في حظر رفع الأذان بالمساجد وفرض ضرائب باهظة على كنائس القدس ما دفع قساوسة كنيسة القيامة لإغلاقها لأول مرة في التاريخ.

وسعت القيادات الصهيونية جاهدة إلى تهويد القدس من خلال طمس وجهها العربي على مختلفة الأصعدة، جغرافيًّا وعمرانيًّا وديموغرافيًّا، واختراع تاريخ آخر لها خاصة ولفلسطين عامة، وسعت الصهيونية للتشكيك في الراوية التاريخية الإسلامية حول القدس والتشكيك بمصداقيتها، والطعن في المصادر العربية الإسلامية المبكرة التي تؤكد هوية القدس وفلسطين العربية والإسلامية.

ومنذ وصوله للسلطة اتخذ الرئيس الأمريكي دونالد ترامب موقفا داعما لإسرائيل في خطتها لتهويد القدس زاعما في كلمة مسجلة بتاريخ 14 مايو 2018 أن القدس هي عاصمة الشعب اليهودي منذ القدم متجاوزا بذلك تاريخ المدينة وعروبتها الثابتة وهو ما دفع الأزهر الشريف للرد على ما وصفه بمغالطات الرئيس الأمريكي حول القدس.

وقال الأزهر في بيان له أنه أصدر وثيقة في 20 نوفمبر 2011 بعنوان «وثيقة الأزهر عن القدس الشريف»، أكدت أن «عروبة القدس تضرب في أعماق التاريخ لأكثر من ستين

قرناً.. حيث بناها العرب البيوسيون في الألف الرابع قبل الميلاد، أي قبل عصر أبي الأنبياء إبراهيم – عليه السلام – بواحد وعشرين قرناً.. وقبل ظهور اليهودية التي هي شريعة موسى –عليه السلام– بسبعة وعشرين قرنا».

وأوضحت الوثيقة أن «شريعة موسى – عليه السلام – وتوراته قد ظهرت بمصر، الناطقة باللغة الهيروغليفية قبل دخول بني إسرائيل غزاة إلى أرض كنعان، وقبل تبلور اللغة العبرية بأكثر من مئة عام، ومن ثم فلا علاقة لليهودية ولا العبرانية بالقدس ولا بفلسطين».

ولفتت الوثيقة إلى أن «الوجود العبراني في مدينة القدس لم يتعد 415 عاماً بعد ذلك، على عهد داوود وسليمان – عليهما السلام – في القرن العاشر قبل الميلاد.. وهو وجود طارئ وعابر حدث بعد أن تأسست القدس العربية ومضى عليه 30 قرناً من التاريخ».

وقالت الوثيقة إنه «إذا كان تاريخ القدس قد شهد العديد من الغزوات والغزاة، فإن عبرة التاريخ تؤكد دائماً أن كل الغزاة قد عملوا على احتكار هذه المدينة ونسبتها لأنفسهم دون الآخرين.. صنع ذلك البابليون والإغريق والرومان وكذلك الصليبيون.. ثم الصهاينة الذين يسيرون على طريق هؤلاء الغزاة، ويعملون الآن على تهويدها واحتكارها والإجهاز على الوجود العربي فيها».

وقال الأزهر «لقد صنع الغزاة ذلك، بينما تفرد الإسلام الذي تميز بالاعتراف بكل الشرائع والملل واحترم كل المقدسات وتفرد بتأكيد قداسة هذه المدينة وإشاعة ذلك بين كل أصحاب الديانات والملل.. الأمر الذي جعل – ويجعل– من السلطة العربية على القدس ضماناً لمصالح الجميع، فالقدس في ظل السلطة العربية هي – دائماً– مدينة الله، المنفتحة الأبواب أمام كل خلق الله وعباده».

وشددت وثيقة الأزهر على أن «احتكار القدس وتهويدها – في الهجمة المعاصرة – إنما يمثل خرقاً للاتفاقيات والقوانين والأعراف الدولية التي تحرم وتجرم أي تغيير لطبيعة الأرض والسكان والهوية في الأراضي المحتلة، ومن ثم فإن تهويد القدس فاقد للشرعية القانونية، فضلاً عن مخاصمته لحقائق التاريخ التي تعلن عروبة القدس منذ بناها العرب اليبوسيون قبل أكثر من 60 قرنا من الزمان».

وأكدت الوثيقة أن «الأزهر الشريف – ومن ورائه كافة المسلمين في الشرق والغرب – إذ يرفض هذه المشروعات، يحذر الكيان الإسرائيلي والقوى التي تدعمه من التداعيات التي

تهدد سلام المنطقة بل سلام العالم كله، ويذكر الكيان الاسرائيلي بأن الصليبيين قد احتلوا مناطق أوسع مما تحتله الصهيونية.. ووقعت القدس في الأسر الصليبي مدة تزيد عن ضعف السنوات التي وقعت فيها في قبضة الصهيونية الباغية.. ومع ذلك مضت سنة التاريخ التي لا تتخلف إلى طي صفحة الاحتلال وإزالة آثار عدوان المعتدين على الحقوق والمقدسات».

وأشارت الوثيقة إلى أن «القدس ليست فقط مجرد أرض محتلة، وإنما هي – قبل ذلك وبعده– حرم إسلامي مسيحي مقدس.. وقضيتها ليست – فقط – قضية وطنية فلسطينية، أو قضية قومية عربية، بل هي – فوق كل ذلك – قضية عقدية إسلامية، وإن المسلمين وهم يجاهدون لتحريرها من الاغتصاب الصهيوني، فإنما يهدفون إلى تأكيد قداستها، ويجب تشجيع ذلك عند كل أصحاب المقدسات كي يخلصوها من الاحتكار الإسرائيلي والتهويد».

ختاما.. ستبقي القدس مطمع لكل محتل غازي ولكنها ستبقي في عناية الله فهي أرض الله المباركة وربما لا أجد أصدق من تلك العبارة «القدس شيءٌ لا يمكن تصنيفه، وحده الله يمكنه الكتابة عنها» والتي جسد بها الروائي العراقي علي بدر في روايته «مصابيح أورشليم» صعوبة الكتابة عن المدينة المقدسة التي هُدمت 18 مرةً وأعيد بناؤها إثر كلّ هدم، ويمتدّ عمرها إلى 45 قرناً بحسب الكاتب.